مقدمة المُعَرِّب

لِتَعْريب هذا الكتاب قِصّه طولها ربع قرْنٍ من الزمان...؛ اشتريتُه عام ١٩٦٥م في نيجيريا، بعد صدوره بأشْهرٍ قليلة، وكُنتُ في السنة الأولى من عملي في الهيئة الدولية؛ وطالعتُ فَصْلَهُ الأوّل فأعجبني في المؤلف مُحاوَلَتَه إنْصاف مُسْلمي شِبْه القارّة الهنديّة بعامّة، وحياده النسْبي وسَرْده الموضوعي للأحداث التي أدّت إلى قيام باكستان بخاصّة. وعَرَّبْتُ الفَصْل الأوّل من الكتاب آنذاك؛ ولِسببٍ ما وَضَعْتُ الكتاب جانباً وشَغَلَتْني أعمالي الوظيفية والخاصّة.... ولم أَعُدْ إليه إلا أواخر عام ١٩٨٨م بَعْد مَقْتَلِ الرئيس المرحوم محمد ضياء الحق فطالَعْتُ الفُصُول الباقية وعَرَّبْتُها وقدَّمْتُه للناشر في السنة قَبْلَ الأخيرة لعملي في الهيئة الدولية عام ١٩٩٠م.

باكستان، رغْم أنُوفِ أعدائها الكُثُر، ورغم ضيق أُفقِ القوميين والعلمانيين من أعداء المسلمين عرباً وعجماً... فهم لا يُولُونها الاهتمام اللازم، باكستان هذه هي الجزء الهام جدًّا مِنْ دار الإسلام:

١ـ على صعيد الديموغرافيا ـ السكانيّة ـ بجناحيها الغربي والشرقي، بل وحتّى بجناحها الغربي الباقي فقط وتعداده مئة وثلاثون مِلْيوناً تقريباً.

٢ـ وعلى صعيد الاسْتراتيجْيا ـ الجيُوفيزيائية ـ وهي المحاطة بثلاث دولٍ كُبرى معاديةٍ كُلّها عقيديّاً، واثْنَتَان مِنْها تكيد لها أيضاً سياسيًّا وعسكرياً؛ ولباكستان في الظاهر أصدقاء (أَلِدّاء) بين الدول الغربيّة الكُبرى، حماها الله من هؤلاء الأصدقاء الأعداء المَصْلَحِيّين الذين يريدونها تابعاً مطيعاً ثقافياً واقْتِصاديًّا وسياسِيًّا.

٣ ـ وعلى صعيد الدعوة والهويّة الإسلامية وهي المُعَوّل على شَعْبها المؤمن وجيشها القوي في حماية ثغور الإسلام المفتوحة وحدوده العقيدية، وهي المؤمّل مِنْها أن تكون العماد القويّ والسند الفعّال في الجهاد لاسترداد مقدساتنا في فلسطين الجريحة، إن شاء الله.

٤ ـ وعلى صعيد المنطقة الجغرافية، باكستان هي أيضاً السند الجنُوبيّ لِمُسْلِمِي آسيا الوسطى، فهي مع إيران وأفغانستان الامتداد الطبيعيّ لهم، وهم الآن، كان الله في عونهم، بين المطرقة السوفيتية والسنْدان الأميركي الصهْيونيّ والحملة الإعلامية العدوانية الأوروبيّة

المُتعَصِّبة.. وكل ذلك من مظاهر استمرار الحروب الصليبيّة على المستويات الثقافية والاقتصادية بل والعسكرية. أمّا نَظْرَةُ الغرب الحاقد للإسلام هناك فَهِيَ ما لَخَّصَهُ أَحَدُ عُتَاةِ الاستعماريين الانكليز في إحدى الوثائق السريّة لوزارة الخارجية البريطانية التي كُشِفَتْ حديثاً، كالتالي: «إن الإسلام في آسيا الوُسْطى هو من القُوّةِ الكبيرة بحيث لا يمكن سَحْقُهُ... إلاَّ تدريجيًّا»[1] ... ولاتزال عملية «السَحْقِ» مستمِرّة.

وأوضاع باكستان اليوم تُقْلِقُ مُحِبِّيها، لِخُطورتها ولِتَصْميم أعدائها على تَفْتِيتها بينما الكثير من سياسيّيها في غَفْلة، والانتهازيةُ تَلُف أَكْثَرَ أحزابها والشعب في غالبيته محروم من العيش الكريم؛ كل هذا يُؤلم أصدقاء باكستان ويُفرح الشامتين بها.. وهم كُثُر.

وأخبار كشمير المجاهدة تَتَصَدَّرُ أعمدة الصحف وتَملأ أجهزة الإعلام اليوم، والهجمة الدولية المتلاحقة التي تأخذ بخناق العالم المسلم من جميع جهاته؛ وتدّعي الصحافة الغربية أن بلاد المسلمين هي بُؤَرُ الاضطراب مُوحيةً بأن الإرهاب والعنف هما من طبيعة الإسلام وأهله، وذلك في عملية تغطية للأيدي الصهيونية القذرة التي تُثير ذلك حسْب المخطّط المرسوم: فالصراعات الإقليمية والتوترات الداخلية والحروب المحلية والأهلية والاقتتال الطائفي والخلافات الحدودية... هي كلّها الأسلحة الاستراتيجية الفاعلة لِكَسْرِ شوكةِ المسلمين وإعاقةِ صَحْوَتِهم وتَقَدُّمِهم ووحدتهم الفكرية والسياسية والجغرافية. فَمُشْكِلة جنوب السودان مِثْل مشكلة جنوب الفليبين، ومشكلة فلسطين مثل مشكلة كشمير وآلام المسلمين في (أراكان) ببورما مثل آلام المسلمين الجائعين في إرْتيريا والحبشة. وأنانية وانحياز وتَعَصُّبُ وسيطرةُ الغَرْبِيّ الأبيض لاتزال تعْتبر الحيوانات الأليفة والوحشية الأوروبية أهَمَّ وأغلى عليه من ملايين المحرومين من بَشَرِ آسيا وإفريقيا. فالنضال من أجل حريّةِ وديموقراطية واستقلال (لِتْوانيا) و(لاتْفَيا) هو من مواضيع حقوق الإنسان. أمّا تَطَلُّع شعوب آسيا الوُسْطى للحرية والكرامة فهو إرهاب وتطرّف وأصوليّة خارجَةٌ على (قوانين) الغَرْب.. ويجب أن تُسْحَق

ولقد أصبح من الواضح، حتى للبسطاء، أن اتفاق الشرق والغرب الأوروبيّ بقيادة الولايات المتحدة الأميركية هو من إخراج الصهيونية العالمية التي أزالت «بُعْبُعَ» الشيوعية

---

(١) الوثيقة السرية رقم ٥٧٣/ج في ٢٨ تشرين أول.أكتوبر عام ١٩٣٩م وهي تقرير كتبه (السِرْ فِتْزْرُوْي مَاكْلِين) نَقْلاً عن جريدة الشعب (NATION) الباكستانية اليومية الصادرة بالانكليزية. تاريخ ٢ آذار. مارس ١٩٩٠م في الصفحة (١٠).

القديم من أعين وأذهان أوربا المسيحية.... لِتُبَدِّلَهُ الآن «بالبُعْبُع» الإسلامي... القديم - الحديث. ولقد بَدَأَتْ إرهاصات الصليبيّة المُتَجَدِّدة في الاتفاق السوفيتي - الأميركي على أفغانستان؛ وشعبها المسلم المكافح. وكان في أساس هذا الاتفاق بعضُ حُكَماءِ صهيون أمثال (هنْري كِسِنْجِرْ) و(أَرْمانْدْ هَامِرْ) فلقد عملا منذ سنوات قليلة على تمييع الجهاد الإسلامي في أفغانستان بالدعوة لقيام حكم ائْتِلافي «مُعْتَدِل» ! فيها بقيادة الملك المخلوع العجوز محمد ظاهر شاه، وذلك لإبْعاد الإسلام عن حُكْمِ إفغانستان الحرّة بعدما أصبح المجاهدون قاب قوسين أو أَدْنى من النَّصْر بحُجَّةِ أن الأصولية المُتطرِّفة خَطَرٌ على الغرب الأوروبي الأميركي السوفيتي بل وعلى بعض حُكّام العالم المسلم التعيس،... ويشهد العالم الآن، الفصول الأخيرة في هذه الخطّة الماكرة.

وحتّى تُزال كل العوائق من الطريق وتُيسَّرَ فُرَصُ النجاح لهذه الخطة كان على «الأيدي الخَفِيّة» أن تسْتأصل بعض الشخصيات الفاعلة. ولَعلَّ مَقْتَلَ الرئيس المرحوم ضياء الحق - وكانوا يزعمون أنهم أصدقاؤه - وزَعْزَعَة اسْتِقرار باكستان كانا لِتَسْهيل تمْرير هذا المخطّط الدولي حتّى لا يَتَسانَد مسلمو آسيا الوسطى وآسيا الجنوبية في كفاحهم من أجل الحرية والاستقلال والعيش الكريم والتقدم والسلام. فَبَعْد أن أسهم كُلّ أعداء الإسلام في فَصْلِ جَناحَيْ باكستان سنة ١٩٧١م، تقوم الآن مؤامرات ومناورات مأجورة رافعة رايات إقليمية عنصريةً مُتَعَصِّبَةً نَتِنَةً، كما وصفها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، محاولة تقطيع أوصال ما تَبَقّى من باكستان، داعية لإقامة دويلات السِنْدِ وبالوشِسْتانْ وبَخْتُونِسْتانْ وغَرْب البَنْجاب... وما إلى ذلك. وبَضَياع قيم الإسلام من نفوس البعْض أصبح المسلم يقتُلُ أخاه المسلم لأنّ الأول (سِنْديّ) والآخر (مُهاجِر)، والثالث (باثانيّ) أو (بالوشِيّ) أو (بَنْجَابِي).. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحمى الله باكستان مِمّا يُراد بِها وَلَها من سوء العاقبة.

قامت دولة باكستان أساساً على أعمدة ثلاثة: إشراقة فِكْر الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، وحِنْكَةُ وصَلابَةُ رَجُل الدولة الشهير والمحامي القدير محمد علي جناح، وإيمان مُسْلِمي شبه القارّة وتضْحياتهم الهائلة في سبيل تأسيس دولة حرّة كريمة لا حُكْمَ فيها إلاّ للإسلام. ولقد ظهرت باكستان للوجود بين الدماء والدموع والصبْر والكفاح المرير الذي أَدَّى لاسْتِشْهاد ملايين، ولتشويه وتعويق ملايين أخرى ولِتَشرُّد وهجرة عشرات الملايين

الذين خَسروا كل شيء إلا إيمانهم بالله وعَزْمَهُم على إقامة الدولة بعدما اسْتَذَلَّهم، لفترةٍ طويلةٍ، عَدُوَّانِ قَوِيَّان: استعمار بريطاني بغيض وتَحَكُّمٌ هندوسي ظالم وَوَحْشِيّ.

ولَعلَّ من أهَمِّ أسْبابِ الصُعوبات التي واجهتها دولة باكستان، داخلياً وخارجياً، ولاتزال تواجهها، هو بُعْد المسؤولين فيها عن الروح التي من أجلها وبها كافح آباؤهم لإقامَتِها. وما كان مسلمو شِبْهِ القارّة الهنديّة بحاجة لتقديم مثْلِ تلك التضحيات الجسام لِيُقيموا مُجْتَمعاً مُتَغَرِّباً عِلْمانِيًّا يُبْعِدُ الإسلام عن أصول الحكم وعن معايير الأمور في التعامل اليومي الحياتي فيما بينهم أوّلاً وفيما بينهم وبين العالم الخارجي ثانياً. فالأمية الغالبة والرشوة والمحسوبيات والفساد والانتهاز السياسي، والاقتتال الطائفي والعرقي والظلم الاجتماعي والإقطاع الزراعي[1]... لا توجد في مجتمع يحكمه الإسلام. ولقد كتب المؤلف عن هذه الناحية عام ١٩٦٤م ما يلي: «إذا كان الطابع الاستثنائي المميّز ـ الإسلامي ـ لباكستان سيزول فَسَيُسَبِّبُ هذا أَسَفاً لدى البَعْضِ وسَيَبْقى العالم مجموعةً من دولٍ تعيش حياة رتيبة مُمِلّة. ومن المؤكد أن القومية السطحية المُقَلِّدَة لقومية الغرْب والتي أغْرَقَتْ بطُوفانها بلاد المشرق تبْدو شيئاً تافِهاً لا جاذبيّة فيه مقارناً بالطابع المميّز المستمِرّ للشرق. ولكن هناك عوامل قويّة تجتهد في تَمْييع هذا المذاق الإيْدْيُولوجي ـ العقيدي» ـ ولم يُفَصِّل الكاتب «العوامل القويّة هذه؛ وهذا الاتجاه بالذات هوالذي أضعف حصانة باكستان وجَعَلَ شرقها يَنْفَصِلُ بالقوّة عنْها عام ١٩٧١، بمساعدة هذه «العوامل» الخارجيّة والداخلية ـ ولَعَلَّ أبرزها في الداخل العَصَبيّات القومية والعُنْصرية والإقليميّة».

هناك التباس هام أثاره القوميون العرَب لما قامت باكستان مُدَّعين أنه لا يجوز تَقْسيم الأمّة الهندية. ولقد جهل هؤلاء ـ أو تجاهلوا ـ أنه لم يُوجَدْ في الماضي، ولا هو موجود في الحاضر أمّةٌ هندية في شبْه القارّة بَلْ هناك هندوسيّة وإسلام وبعض الأقليات الصغيرة الأخرى. وفي هذه المنْطقة الجغرافية الواسعة مجموعات عِرْقيّة ولُغَويّة عِدّة. أمّا المسلمون فهم جزء من أمّة واحدة لها حدودها العقيديّة وثقافتها المتميّزة بوَحْدانية الخالق والوسطية والمساواة والعدل بين الناس في الحقوق والواجبات. وهذه كلها أمور أساسيّة مفقودة في الهندوسيّة. يقول المؤلف: «كان من المستغرب حقًّا أن لا تُؤدّي الوحدة الجغرافية،

(١) حتى أوائل الستّينات كان (٦٪) فقط من مُلاّك الأراضي لهم أكثر من (٢٠٪) من مجموع الأراضي الزراعية الصالحة للاستثمار في البَنْجاب، أمّا في السِنْد فكان الوَضْعُ أسْوأ من ذلك.

بالإضافة لمحاولات الإداريين التوحيدية مدّة ستّمئة سنة إلى إقامة امتزاج نهائي كامل بين المسلمين والهندوس إلا أن أمرهم يشبه وَضْعَ الماء والزيت. لقد عاش الجميع لمدّة طويلة مُتجاورين مُتسامحين ـ أو على الأقلّ ـ غير مُتخاصمين يحكم طرف منهما ـ الطرف المسلم ـ الطَّرَف الآخر إلا أنّهم لم يَمْتَزِجوا فلقد كان لكل طرف منهما أوضاع مُتباينة منفصلة[1] ، وكان هذا الأمر واضحاً لدرجة أن أحد مشاهير أهْل الشرع الإسلامي ذَكَرَ في العشرينات من هذا القرن، وبَعْد ثمانية قرون من قيام التناظر بين الطرفين ما يلي بالحرف الواحد: «إنّ أَيَّ مسلم منا نحن أبناء شبه القارّة الهنديّة يِشْعُرُ عندما يُسافِرُ أنه في بلده وبين أهله عندما يكون في أفغانستان أو إيران أو آسيا الوسطى أو تركيا أو البلاد العربية إلاّ أنه يَشْعُرُ بالغربة الكاملة في كل الأمور الاجتماعية هنا في بلده عندما يقطع الشارع ويدخل أحياء الهندوس».

ويقول المؤلف أيضاً: «لقد تحقّق المسلمون باطّراد أن إمكانية تعايشهم السِّلْمي مع الهندوس في شبه القارة الهندية في ظِلِّ حكم ديموقراطي مُسْتَقِل ضعيفة جدًّا رغم أنهم تعايشوا إلى حَدٍّ ما في فترات متقطّعة من حكم المغول والبريطانيين. إلا أن أكثر المسلمين لم يكونوا في ذلك الوقت على استعداد لِهَضْم فكرة إقامة دولةٍ على النمط الغربي إذْ لم تكن صغيرة تَقْتَصِرُ على مشاعر الولاء للقبيلة أو العائلة أو المقاطعة أوْ المشاركةِ اللُّغويّة؛ ولم تكن كبيرة إلى الحدِّ الذي يرْغَبونَ في أُخُوَّةٍ إسلامية شاملة جامعة ليس لها حدود. لذلك بقيت باكستان لدى الكثير من المسلمين فكرة يجب التعَوُّد على قبولها، ومن يستطيع لَوْمَهم على هذه المشاعر، ففِكرة الدولة الغَرْبيّة هجينة بالنسبة لهم في آسيا مستوردة حديثاً من أوروبا، وولاء الآسيويين والأفارقة العاطفي لهذه الفكرة أَمْرٌ غير أكيد».

ولم يعمد مسلمو شبه القارّة إلى طلب الاستقلال بمناطقهم وهم فيها الغالبيّة العُظْمى إلاّ عندما يَئِسُوا تماماً من تعايشٍ سِلْميّ بنّاءٍ عادل بينهم وبين الهندوس يحفظ لهم عِزّتهم الإيمانية وأوضاعهم الإنسانية وأحوالهم الشَّخْصِيّة وتميّزهم الثقافي وحُرية العبادة والعمل

---

(١) لأنّ الإسلام يؤمن بأن (لا إكراه في الدين) لذا ترك أبناء الأديان الأخرى أحراراً في عقيدتهم وعباداتهم طالما كانوا يتعايشون مع المسلمين. ولو عمد المسلمون لاتّباع خطّة المسيحيين مثلاً في اسْتِئْصال شأفة المسلمين تماماً من الأندلس: إسبانيا والبرتغال، لما بَقِيَ في العالم المسلم أقليات من الأديان الأخرى بعد ألف وأربعمئة سنة على ظهور دعوة الإسلام. هذا الواقع يُكذّب كل دعايات أعداء الإسلام في هذا الموضوع: موضوع التعصّب والتسامح ويُظهران التعصب هو بضاعة الأديان الأخرى غير الإسلام. المُعَرِّب.

على قدم المساواة سواء بسواء، مع الهندوس، تماماً كما وفّروا هم للهندوس مثل ذلك لمّا حكموا الهند في العهْد المغولي المسلم لأكثر من ستّمئة سنة. ولقد أوضح السيد محمد علي جناح في إحدى مقابلاته الصحفية المشهورة مدى الاختلاف الثقافي بين المسلمين والهندوس بقوله: «ليس الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه في الغرب فقط بل هو نظام حياة واقعي يَضْبِطُ سلوكنا في كل ميادين النشاط الحياتي: في تاريخنا وأبطالنا وفنوننا وهندستنا المعمارية وقوانيننا وتشريعاتنا وموسيقانا، ففي كُلّ هذه المجالات لا نختلف فقط اختلافاً أساسياً عن الهندوس بَلْ نتعارضُ تعارضاً جذريًّا في غالب الأحيان، فأسماؤنا وملابِسُنا وطعامنا ومعاملتنا للنساء ونظرتنا للحيوانات مختلفة عنهم، كذلك حياتنا الاقتصادية وأفكارنا في التربية، ونحن نتحدّاهم وهُمْ يتحدَّوننا في كلّ نقطة من النقاط المذكورة؛ لنَأْخُذْ مثلاً واحداً فقط نحن نأكل لحم البَقَرِ والهندوس يعبدون البَقَر؛ يَظُنُّ الانكليز أن هذا الأمر مسألة صورية فقط إلا أنها ليست كذلك فمنذ أيام أثار موضوع البقر في هذه المدينة ـ بومْباي ـ وَضْعاً استدعى تدخّل رجال الشرطة؟؟

والالتباس الهام الآخر الذي يحتاج لتوضيح أيضاً هو أن الاستعمار البريطاني، على عكْسِ ما أشاعه القوميون والعلمانيون العرب، كان مُنْحازاً في تعامله الإداري والسياسي والعسكري بل وميله العاطفي إلى الهندوس، ولازالت هذه نظرة البريطانيين بخاصة والغرْب بعامّة، قبل وخلال وبعد التَقْسيم كما شهد شاهد منهم في هذا الكتاب: وبصدد موقف الغرب المناوئ للمسلمين بعامّه يقول المؤلف منذ البداية، في الفصل الأوّل:

«أمّا موقف الغربيين: أوروبيّين وأمريكان من الإسلام فهو أَمْرٌ مُلْفِتٌ للنظر رغم عدم بروزه؛ وهناك من الأسباب ما يثير الشكّ في أن هذا الموقف الغربيّ المناوئ لباكستان يَنْبَعُ من أصولٍ دينيّة».

ثم يُتابع، في موضع آخر، قائلاً:

«وقد يلاحظ بعض المسلمين حَرَجَ الرجُل الغربي حين يسألونه بأَدَبٍ عن سَبب الجَهْلِ الشديد لدى الغربيين بأَبْسَطِ الحقائق الآسيويّة: أَمَا زال الغربيّون خاضعين لسلطة الكنيسة القديمة؟ هل تَجْرِفُهم، بلا وَعْي، المخاوف التي أثارها الرُهْبانُ والقُسُس قبل قرون عديدة عن قُدْرَةِ الإسلام التوسّعية؟

أَمَا زَالَتْ الذكريات عن بَعْضِ الحقائق التاريخية المُرّة قابِعةً في زوايا الذِهْنِ الأوروبي

كأحداث عام ٧٣٢م عندما غزا فاتِحو إسبانيا الأراضي الفرنسية بقيادة عبد الرحمن وجاوزوا (بواتييه) ووصلوا منتصف فرنسا ولم يَبْعدوا عن القنال الانكليزية آنذاك سوى مِئَتَيْ ميل» ؟؟

ويختم المؤلف هذه الأسئلة بقوله: «ربما وجد المواطن الغَرْبي صعوبات في محاولتِهِ الإجابة عن هذه الأسئلة» !!

والعلمانيون العرب ـ من الذين يحملون أسماء مسلمة ـ مثلهم مثل أسيادهم من «مُثقّفي» الغَرْب عارضوا قيام باكستان لأنهم يعارضون وَصْلَ الدين بالدولة. وفي معرض تبرير نَصَارَى الغرب لفصل الدين عن الدولة يُرَدِّدُون ما ورد على لسان السيد المسيح ـ عليه السلام ـ: «أَعْطُوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، ولكن العجيب إن المغرَّبين العِلْمانيين العرب لم يعترضوا، ولا يعترضون، الآن على تَدَخُّل القُسُس والرهبان في السياسة واستلامهم لمناصب سياسية عليا كرئاسة الدولة مثلاً. ففي الوَقْتِ الذي يهاجمون فيه علماء الإسلام لتدخّلهم في أمور الدنيا والحُكْم، كمواطنين مسئولين على أقَلِّ تقدير، ـ وهذا واجبهم الإسلامي الواضح ـ لم نَسمع عن العلمانيين العرب إنّهم اعترضوا على استلام المطران (مكاريوس) رئاسة دولة قبرص أو تَزعّمُ القس (دِسْمُونْدْ توتو) للحركة السياسية المطالبة بالاستقلال والمساواة العنصرية في جنوب إفريقيا أو لنفوذ وتدخُّلِ الكاردينال (سِنْ) في (مانيلاّ) بالفليبين في السياسة المحلية، بل وحتى قداسة البابا نفسه لا يمنعه ـ على ما يبدو ـ منصبه الديني من التدخُّل الفاعل في (بيافرا) في الماضي القريب وفي لبنان حاضراً. والثابت أن (نَخْوةَ)! العلْمانيين للعلمانية لا تظهر إلا عندما يكون الإسلام هو الموضوع. والمثل الأحْدَث الذي ذكرته قبلاً في هذه المقدمة هو أفغانستان فأهل «اليسار الأميركي» وأتْباع الماركسية المُنْهارة، في العالم العربي المسلم كانوا ولازالوا ضدّ انتصار الجهاد الإسلامي في تلك الدولة المكافحة لأنّهم لا يريدون أن يحكم الإسلامُ بلادَ الإسلام فهو، حسب مُركّب النَقْص عندهم، الدين الوحيد «الرجعي» ولا حرج على أيّ دين آخر سماوي أو غير ذلك: كونْفُوشْيُوسِيّ أو هندوسيّ أو وثَنِيّ أو شيطانيّ. يقول مؤلف الكتاب مُنْصِفاً في هذا الصدد:

«قد يسأل أحد الباكستانيين الحانقين من شكوك المثقّفين الغربيين ـ وبخاصة البريطانيين ـ بباكستان، في هجوم معاكس: أَوَلَيْسَ في الغرب بلاد يختلط فيها الدين

بالدولة؟ لنَأْخُذْ مثلاً انكلترا، هل يكون الباكستاني مُخطِئاً إذا افترض أن الذي يستلم رئاسة الدولة في انكلترا عليه أن يَعِدَ، قبل تَوَلِّيهِ المنْصِبَ بصيانة وحماية طائفة مسيحيّة مُعَيَّنةٍ هي الأنْكليكانية؟ أوَ لم يكن أيضاً تعْيين كبار رجال الدين من هذه الطائفة ـ منذ قيامها إلى الآن ـ من قِبَلِ رئيس الدولة؟ بل من قِبَلِ السياسيين المسئولين والإداريين المدنيّين وقد يكون بينهم الآن من ليس مسيحيًّا بل ربّما يهوديًّا أو مُلْحداً؟ ألا يُخْتارُ ستٌّ وعشرون من كبار رجال الدين ـ الأنكليكان ـ فقط ليشاركوا في السياسة وذلك بتَعْيينهم أعضاء في مجلس العموم؟» ...

وسيرى القرّاء الأكارم لدى قراءتهم لهذا الكتاب أن المذابح المنظمة ضدّ المسلمين في شبه القارة تَزَعّمَها ووَجَّهَها رجال الدين الهندوس والسيخ ولايزال مسلموا الهند يُذْبَحُون، حتّى هذه الساعة، بالآلاف على أيدي وبتوجيه (الغُورو) الهنادكة.

ولقد أمَّلْتُ من تعريب هذا الكتاب أن يطَّلعَ أبْناءُ الضاد وبخاصَّةٍ شباب الإسلام على الخلفيّات التاريخيّة لقيام باكستان بالتَفْصيل، مَرْوِيَّةً من قِبَلِ كاتب غربي بريطاني مُطّلع عاش في شبه القارّة سنين طويلة قبل وبعد قيام باكستان.

وقد لا نوافق المؤلف في بَعْضِ ما اجْتهد فيه من تعليلٍ لِبَعْضِ الأحداث والوقائع، وتَفْسيره لمدى وقوّة تأثير بَعْضِ هذه العوامل في الأحداث التي أدّتْ إلى قيام باكستان، ولا في نَظْرَتِهِ لِبَعْضِ علماء المسلمين وبَعْضِ الحركات الإسلامية، ولا في مَدْحِهِ للحكم العسكري في الانقلاب الأوّل، والكتاب لا يَضُمّ إلا تاريخ الأعوام السبعة عشر الأولى من حياة باكستان.

وهو على كل حال، بريطاني مسيحيّ له ثقافته وخلفيّتُه وآراؤه الخاصّة وله كامل الحريّة في اعْتقاد ما يريد، ولكن هذا كله لم يُؤَثِّر في روايته المحايدة الموضوعية لأحداث النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرْنِ العشرين مدعومة بالمراجع. وهو، كما نرى، من قلائِلِ الكُتّاب الغربيين الذين ليس لديهم ـ على ما يبدو ـ فكرة مُسْبقةٌ وحِقْدٌ دفين ـ مَوْروثٌ أو مُكْتَسَبٌ ـ على المسلمين بعامة وعلى الباكستانيين بخاصة.